

المشروع الثقافي الاستعماري في الجزائر

من خلال الكتاب المدرسي الفرنسي آنذاك

— ترجمة و تعليق —

أ / هجيرة لعور

جامعة باجي مختار — عنابة

توطئة :

كثيرة هي الدراسات التي تطرقت لموضوع الحرب بشتى مظاهرها ولكنها نادرة تلك التي تناولت انعكاساتها على شخصية الطفل و هويته و كل حقوقه باعتباره شخصا له حق اكتساب الهوية و الحفاظ عليها دون أي تدخل غير شرعي ..

فالمادة الرابعة عشر من اتفاقية حقوق الطفل تنص على ما يلي :

(— تحترم الدول الأطراف حق الطفل في حرية الفكر و الوجدان و الدين)¹

و كثيرة هي تلك الاتفاقيات التي تحاول جاهدة الحفاظ على حقوق الطفل باعتباره مواطنا يتمتع بكل حقوقه الطبيعية . و أهم هذه الحقوق

¹ — المادة 14 ، اتفاقية حقوق الطفل ، اعتمدها الجمعية العامة بقرارها 24 / 25 ، المؤرخ في 20 تشرين الثاني / نوفمبر 1989 . و بدء النفاذ : 2 أيلول / سبتمبر 1990 . بموجب المادة 49 . (من الإنترانيت) .

وأخطرها — في نظرنا — ما يتعلق بتعليمه ، و لهذا سعت العديد من الجمعيات و الهيئات إلى جعله إلزاميا و مجانيا . كما تنص عليه المادة الثامنة و العشرين من نفس الاتفاقية :

(— أ — جعل التعليم الابتدائي إلزاميا و متاحا مجانا للجميع)¹

و لكن أن يستغل التعليم في غزو من نوع آخر يدعى بـ " الغزو الفكري " فهذا هو الأخطر ، وهذا ما فعلته فرنسا إبان احتلالها للجزائر ، حيث قامت بدس ألغام مهيأة للتفجر في كل حين ، من خلال الكتاب المدرسي الذي وجهته خصيصا للتلميذ الجزائري لتضمن بذلك تطبيق أهم بنود مشروعها الثقافي الإستعمار باحتلالها للجزائر من خلال امتلاك هذه العقول البريئة بأفكار سامة تشوّد ماضيه الجيد و تجعله تابعا لها .. عليه الطاعة و لها الولاء ..

الكتاب موضوع الدراسة ، هو كتاب مدرسي معنون بـ (تاريخ فرنسا و الجزائر — دروس أولية) من تأليف (أ . بونيفين A . BONNEFIN و م . مارشوند M . MARCHAND) بتاريخ : 1950 ، و الذي قدم له المؤلفان بما يلي : " نقدم لمعلمي وتلاميذ الدروس الأولية كتابا فريدا يعالج في الآن نفسه تاريخ فرنسا و الجزائر .. هذا الكتاب يتماشى مع تعليمات و برنامج 7 سبتمبر 1949 .. لقد سعينا إلى ربط كل مشهد من تاريخ فرنسا بمشهد من تاريخ الجزائر ، و في أحيان كثيرة نقع على تشابه يكاد يكون مثاليا لبعض الأحداث .. إنه ضروري أن

¹ — المادة 28 . اتفاقية حقوق الطفل ، المرجع نفسه .

يعرف التلميذ كيف يجب على السؤال : " ماذا يحدث في الجزائر في الوقت الذي يقع فيه حدث ما في فرنسا؟"¹

إذن حسب المؤلفين ، فالغرض الأساس من وضع هذا الكتاب هو الربط بين تاريخ الجزائر و تاريخ فرنسا إلى درجة أنه توجد بعض الأحداث المتشابهة في الكثير من الأحيان .. ليعلم التلميذ (الطفل) الجزائري أن الجزائر تشبه كثيرا فرنسا إلى حد التماثل ؛ إذن هناك صلة وطيدة و منذ الأزل تربط فرنسا بالجزائر !

أول درس في هذا الكتاب المدرسي مخصص لتاريخ الجزائر ، يحتوي على أربعة مشاهد توضح حال القرية الجزائرية حسب التسلسل الزمني . تليها أسئلة استفهامية و بعض التمرينات ثم في نهاية الدرس هناك خلاصة معنونة بـ ((لنحفظ)) بمثابة زبدة الدرس ، مركزة و موجزة ليتمكن التلميذ الجزائري من حفظها بسهولة و من ثم ترسخ في ذهنه إلى الأبد .

الدرس الأول :²

المشهد الأول : (اليوم) نوضح و نسمي كل بنايات القرية — في هذه القرية يضيء السكان بواسطة الكهرباء ، يستمعون للمذياع . يهتفون

¹ - A. BONNEFIN ET M. MARCHAND , HISTOIRE DE France ET D'ALGERIE , PREMIER LIVRE , COURS ELEMENTAIRE , LIBRAIRIE HACHETTE , 1950 , P : 03 .

² - A . BONNEFIN ET M . MARCHAND . HISTOIRE DE France ET D'ALGERIE , P : 04

للمدينة المجاورة ، يقرؤون كل يوم الجريدة . الماء يتدفق دون انقطاع من
النافورة و من الحنفيات الموجودة داخل المنازل ، تنتقل السيارات و
الحافلات و الدراجات على الطرقات .

المشهد الثاني : (منذ مائة سنة) عندما كان جد جدي صغيرا جدا
ما هي المنجزات التي لم توجد بعد على المشهد ؟ — في هذه القرية لا يضيء
السكان إلا بالبتروول أو بواسطة الشمعة ، و عندما يحتاجون للماء ، عليهم
الذهاب إلى البئر التي حفروها وراء دار البلدية . لا توجد سيارات ، لا
توجد حافلات ، لا توجد دراجات الطرقات رديئة و قليلة .

المشهد الثالث : (منذ زمن بعيد) أكثر من 1000 سنة ، أكثر من
20 مرة عمر جدي — ما هي البناية الوحيدة الموجودة في كل مرة على
المشاهد 1 و 2 و 3 ؟ في هذه الدشرة يضيء السكان بمصابيح زيتية صغيرة
و حتى يحصلوا على الماء عليهم الذهاب إلى ينبوع الموجود على بعد
أكثر من كيلو متر . لم تجهز بعد الطرقات ، لا توجد إلا دروبا ضيقة . عندما
نريد أن نسافر علينا الذهاب راجلين أو بواسطة الحصان .

المشهد الرابع : (منذ زمن أبعد) أكثر من 2000 سنة ... ما هو
الاختلاف الذي نلاحظه بين المشهد الأول و المشهد الرابع ؟ . رجال هذا
الزمن لا يعرفون الإضاءة ليلا . لا يوجد أثاث في عرائشهم ، إنهم يقتاتون
من الفواكه البرية ، الأصداف ، الحشائش ، الجذور ، و اللحم . ويستعملون
الفؤوس الحجرية في صراعهم مع الحيوانات الغريبة .

و قد انتهى الدرس بملخصة معنونة بـ ((لنحفظ)) و هي كالتالي :
التاريخ هو توالي الأحداث في حياة الرجل ، المرأة ، الوطن . علينا معرفة
تاريخ وطننا ، فرنسا و الجزائر .. "

عندما نحلل هذا الدرس ، نجد أن المشهد الأول يتزامن و تــــاريخ
(1950) ، أي بعد احتلال فرنسا للجزائر بـ (120 سنة) فالقرية
الجزائرية في هذا التاريخ (اليوم — حسب الدرس —) تمتلك جميع
المرافق الضرورية و التي هي من سمات الرقي و التقدم التكنولوجي في تلك الفترة
(1950) ، و الجزائر في هذا التاريخ تحت وطأة فرنسا ؛ إذن من هو المسبب
الرئيسي في ازدهارها ؟ إنما فرنسا بدون أي شك و الدليل على ذلك المشاهد
المالية (2 و 3 و 4) و التي تصور القرية الجزائرية بل الدشرة الجزائرية في
أسوأ ظروف المعيشة ، فقبل (مائة سنة) كما هو موجود في المشهد الثاني ، لم
يكن هنالك سوى مسجد و كنيسة و دار بلدية يرفرف فوقها علم فرنسا ؛ أي
بعد احتلال فرنسا للجزائر بـ (20 سنة) تقريبا . و هذا يوضح أن أولى
المعالم التي أرادت فرنسا تثبيتها على الأرض الجزائرية هي : الكنيسة و التي بنتها
مقابلة للمسجد في تلك القرية الجزائرية . و التي أرادت تثبيتها في ذهن الطفل
الجزائري ليؤمن إيمانا قاطعا أنه بدخول فرنسا و إرسالها لأولى معالمها
بالقرية الجزائرية عملت على ازدهارها . و الشيء نفسه بالنسبة لدار البلدية التي
تظهر على المشهدين الأول و الثاني و فوقها علم فرنسا يرفرف عاليا كدليل —
أيضا — على أنها من ساهمت في تنظيم الحياة المدنية و الاجتماعية للأهالي
فاستحقت فرنسا بهذا ، الولاء .

أما خلاصة الدرس و التي عنونت بـ ((لنحفظ)) فتؤكد أن التاريخ مهم لكل فرد و وطن و على التلميذ الجزائري — إذن — أن يتعلم تاريخ وطنه فرنسا و الجزائر لتطبع في ذهنه أن وطنه هو فرنسا و الجزائر معا و لا شيء يفصل بينهما ، فهذا هو تاريخه و عليه حفظه عن ظهر قلب .

و بالتالي عند عودة التلميذ الجزائري إلى منزله ، و معاودة ملاحظته لتلك المعالم الحضارية الموجودة بقريته يوقن فعلا أن مراحل تاريخ وطنه (فرنسا و الجزائر) هي كالتالي :

— قبل الوجود الفرنسي في الجزائر ، كان الشعب بدائيا و متخلفا ، لا يملك أبسط الوسائل الضرورية لمعيشته .

— أول المعالم التي أرستها فرنسا في القرية الجزائرية لتنظيمها و تطويرها هي : الكنيسة و دار البلدية التي يرفرف علمها فوقها .

— بلغت القرية الجزائرية ذروة تقدمها سنة (1950) ، (اليوم) الذي يعيشه التلميذ الجزائري البريء من خلال تلك المعالم الحضارية (السيارات ، الكهرباء ، الهاتف ، الحنفيات ..) و التي أوجدتها فرنسا .

و خلاصة كل هذا ، سيحفظ التلميذ الجزائري — بعدما تمكنت من ذهنه تلك الأغلام ، و بعد أن أصبح مشوها ذهنيا — بأن فرنسا من انتشلتها من التخلف و الضياع ، و أنها من جعلته يعيش حياة مزدهرة و متحضرة .. فلها الولاء و عليه الطاعة .

و تتوالى الدروس بأن عمد المؤلفان وضع درسين متقابلين واحدا منهما خاص بتاريخ فرنسا و المقابل خاص بتاريخ الجزائر ، مع الحفاظ على نفس الفترة الزمنية ، بغية استخلاص الأحداث المتشابهة لكل من فرنسا و الجزائر

لتأكد للتلميذ الجزائري أن هناك تقاربا كبيرا بينهما و أن لهما — أحيانا كثيرة — تاريخا مشتركا ، و مثال ذلك درسين متقابلين الأول خاص بتاريخ فرنسا معنونا بـ (الرومان في الغول les romains en gaule)¹ و الدرس المقابل و الخاص بتاريخ الجزائر معنون بـ (الرومان في شمال إفريقيا Les romains en afrique du nord) . بغية تجسيد المعاناة المشتركة لكل من فرنسا و الجزائر من جراء الاحتلال الروماني للمنطقتين ، و في نفس الفترة أيضا ، و طبعا ، حتى ترسخ في ذهنية التلميذ الجزائري أن معاناة فرنسا و الجزائر مشتركة ، و أن تاريخهما مشترك .

هذا ، و الدرس الذي نراه أكثر خطورة من جملة هذه الألغام الموزعة بإحكام من طرف السياسة الفرنسية . هو الدرس الخاص بالرسول (صلى الله عليه و سلم) و التي حاولت من خلاله تشويه الحقائق الدينية التي يمكن للتلميذ الجزائري البريء تقبلها دون اعتراض . و قد جاء الدرس معنونا كما يلي : (مَحْمَتٌ MAHOMET) فقد شوّه اسم محمد رسول الله (صلى الله عليه و سلم) و جاء الدرس على النحو التالي :²

(ولد محمد Mahomet بمكة ، في العربية (العربية السعودية) سنة 570 ، في سنة من عمره ، أصبح رسولا Prophète ، معناه مرسول الله L envoyé de dieu . في سنة 622 متبوعا بأعدائه كان عليه أن يخرج إلى المدينة ، هذا الهروب يدعى الهجرة ، بعدها دخل إلى

¹ — الغول La gaule هي فرنسا قديما .

² - A. bonnefin et M. marchand , histoire de France et d'algerie , p : 21

مكة منتصرا ، كتب il écrit كتاب المسلمين المقدس : القرآن le
. coran

مكة هي مدينة المسلمين المقدسة ، في الساحة الكبيرة توجد الكعبة
إنها معبد مغطى بالحرير الأسود ، إنه يحفظ الحجر الأسود ، الذي يلزم على
كل حاج أن يقبله .

وصل المسلمون بقيادة سيدي عقبة سنة 647 إلى شمال إفريقيا .
استطاع البربر الذين يسيرهم كسيلة المقاومة ، و قُتل سيدي عقبة سنة 683
بالقرب من بسكرة .

انتصر خلف سيدي عقبة على كسيلة و امرأة — تدعى الكاهنة —
و التي حاولت أيضا أسر المسلمين ، بعد مقاومتهم ، تبى البربر ديانة محمد)
لينتهي الدرس بملخص معنون بـ ((لنحفظ)) ينص على ما يلي :
(ولد محمد سنة 570 ، كتب القرآن و نشر الدين الإسلامي ، أول
المسلمين الذين وصلوا إلى شمال إفريقيا كانوا بقيادة سيدي عقبة . و البربر
اعتنقوا الديانة الإسلامية بسرعة) .

من خلال النص يتعلم التلميذ الجزائري معارف عديدة تخص دينه
الإسلام ، و لكنها خاطئة في مجملها ، و ما أخطر أن يشوه الدين و أن يتلقاه
الطفل منذ نعومة أظافره كذلك . لقد تعلم هذه الحقائق المشوهة ثم حفظها من
خلال خلاصة موجزة لتتقش على ذاكرته إلى الأبد . فقد تعلم ما يلي :
— لقد كتب محمد القرآن الكريم .

— الكعبة تحفظ الحجر الأسود الذي يجب على كل حاج تقبيله .

إذن : تعلم هذا الطفل البريء ، المهية للحفظ أن القرآن الكريم ليس كلام الله المتزه ، بل هو كلام عادي كتبه بشر مثلنا يسمى محمد .
و قد أتبع النص بأسئلة استفهامية لترسيخ المعلومات في ذهن التلميذ أهمها:

— لماذا تعتبر مكة مدينة مقدسة للمسلمين ؟

— لماذا يذهب المسلمون للحج ؟

ليجيب التلميذ من خلال النص كما يلي :

— تعتبر مكة مدينة مقدسة للمسلمين لأن بها الكعبة التي يحج إليها المسلمون .
— يذهب الناس للحج كي يقبلوا الحجر الأسود .

إذن يتعلم التلميذ الجزائري أن الهدف الأساس من الحج هو تقبيل الحجر الأسود و ليس طلب الرحمة و المغفرة من الله تعالى ، بالتكفير عن الذنوب .

و هنالك نشاط موجه بعد هذه الأسئلة الاستفهامية نصه كالتالي :

(المسلم الجيد هو الذي يجب عليه أن يقوم بسفر إلى مكة مرة في حياته وبعد هذا الحج ، يحمل لقب حاج Hagj . اطلبوا من حاج أن يحكي لنا عن سفره .¹)

إذن تعلم التلميذ الجزائري أن المسلم الجيد هو الذي يحج و عليه فعل ذلك مرة في حياته . و لكن الحقيقة الدينية أن الحج فريضة من فرائض الإسلام

¹ - A. bonnefin et M. marchand , Histoire de France et d'algerie , p : 21

الخمسة ، لكن على المسلم المقتدر (من استطاع إليه سبيلا) و لا شيء يجعل المسلم أفضل من أخيه المسلم إلاّ

(التقوى) لأن الدين الإسلامي دين يسر و ليس دين عسر .

و لكن هيهات أن تعلّم فرنسا هذه الحقائق الدينية كما جاءت فعلا

و النماذج على هذا كثيرة فالكتاب المدرسي — موضوع الدراسة — يحوي **33**

درسا لا يسع المجال لترجمتها و التعليق عليها جميعا و لكنها محملة بالحقائق

المزيفة التي شوّهت التاريخ الفعلي للجزائر العربية المسلمة ، و المؤلم في كل هذا

أن التلميذ (الطفل) الجزائري هو الضحية

و ما أخطر هذه الألغام التي فجرتها فرنسا في ذهنية الطفل الجزائري من خلال

الكتاب المدرسي ليكون أبشع غزو .. ألا وهو الغزو الفكري .. و الذي يجسد

أهم ملف لديها فيما يخص مشروعاتها الثقافي الإستعماري بالجزائر .